نافذة على واقع التعليم القراني وأثاره بمنطقة الشلف في النصف الأول من القرن العشرين

Awindow the Reatity of Coranic Education and its Effects in the chlef Region on the Firsht Half of the Twentyth Century

[أ] جمال مخلوفي ، [ب] أد.شيخ بوشيخي
[أ] طالب دكتوراه بجامعة وهران 01 أحمد بن بلة | d.mekhloufi@univhb-chlef.dz
[ب] استاذ التعليم العالي بجامعة وهران 01 أحمد بن بلة

ملخص

ظلت منطقة الشلف متمسكة بمنهجها السلفي حيث أنجبت شخصيات كانت لها مكانتها في العلم والمعرفة عرفوا بعلماء المعارف أو صلحاء الشلف،كما تأسست بالمنطقة مدارس ومعاهد دينية منها زاوية الولي محمد بن علي وأخوه بواعلي بمجاجة .

استمرت المنطقة خلال العهد الاستعماري في اداء رسالتها الفكرية حيث ظلت مدارسها وزواياها تمثل قلاعا للعلم ومقصدا لطلبة العلم ، وظل أهلها سندا لطلبة العلم الوافدين على مدارسها خلال النصف الأول من القرن العشرين .

لقد تميز التعليم القرآني خلال مرحلة الدراسة بالاعتماد الكلي على ما بقي من أوقاف بالإضافة إلى المساعدات التي كان يقدمها ذوي البر والإحسان ، كما كانت طريقة التعليم تقليدية تستوجب حفظ القران الكريم واستعمال الأدوات الشائعة كاللوحة الفردية والقلم الخشبي والسمق ، هذا بالنسبة للمراحل التعليمية الابتدائية ، أما المراحل الثانوية فقد كانت الطريقة تعتمد على التلقين حيث تعقد الحلقة ويلتف الطلبة حول الشيخ. وقد اشتهرت بالمنطقة بعض المدارس والزوايا كزاوية مجاجة العتيقة وزاوية بن شرقي بونجار بالعطاف ومدرسة الفلاح .

ورغم ما يؤخذ على هذا التعليم فان ذلك لايحجب عنا ما خلفه من نتائج كان لها الأثر البالغ على المجتمع الشلفي ن وذلك بالمحافظة على مقومات الهوية كاللغة والدين ،وكذا الوحدة الاجتماعية والنفخ في روح المقاومة الوطنية

الكلمات الدالة: التعليم القرآني، الزوايا ،الكتاتيب، الشلف، الاستعمار، مجاجة، الأوقاف .

Abstract

The Chlef region remained adhering to its ancestral approach where she gave birsh to personalistes who had a place in science and knowledge known as the shcolars of knowledge or solaha chlef. It also estabilishedin the region schools and institates of jurisprudence , in cluding the coren of wali solha Mhamed Ben Ali and is brotherBouali in Mujaja.

The region continued during the colonial era in the performance of its intellectual mission where the schools and their Zaouias were a hub for science and a destination for students of science .And its people continued to support the students of sience cominge to their schools during the first half of the twentieth century.

During the study period , the Quranic education was characterized by the total dependence on the remainde endowments in addition to the assistance provided by the people of righteousness and charity, the traditional method

of teaching required the persewation of quranic and the use of common tools such as individual paiting , wooden pen and thick .This is for elemetary stages .As for the seconday stages , the method was based on indoctrination where students gotherd around their teacher (chikh). The area was famous for some schools and angles (courner) such as the ancient mujaja angle and zawia Ben Chergui Bounadjar in al attaf and al-falah school Although we are taken on this education , this does not obscure (hide) from as the results that have a great impact on the chelfi community and that the persewation of compoments of identity such as language and religion and such social unity and blowing in the spirit of national resistence .

Keywords: *Qu'ranic education , Corners (zawias)colonization Mujaja, endowments .*

مقدمة

ظلت منطقة الشلف متمسكة بمنهجها السلفي ،فقد أنجبت شخصيات لها مكانتها في العلم والمعرفة أنارت المنطقة بفكرها النير، و يعرفون بعلماء المعارف أو صلحاء الشلف وكانوا مضرب الأمثال من القرن الثالث عشر حتى الرابع عشر الهجري ، منهم الحسن الونشريسي واحمد الونشريسي صاحب المعيار ،كما عرفت منطقة الشلف بإنجابها لعلماء و فقهاء و تأسست بها مدارس و معاهد الفقه و التدريس و لعل زاوية الولي محمد بن علي و أخوه بواعلي و التي حازت على السبق في تدريس الفقه و علوم اللغة بمنطقة مجاجة لخير دليل على ذلك ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن عبد الرحمان المجاجي و يحيى الشاوي و محمد ابن بهلول و الجيلالي بن عبد الحكم و الجيلالي الفارسي كل هؤلاء تفتخر بهم المنطقة كعلماء و فقهاء و لغويين وحتى زعماء سياسيين.

لقد استمرت المنطقة خلال عهد الاستعمار في أداء رسالتها الفكرية ، فقد استمرت زاوية مجاجة و زاوية بن شرقي بو نجار و مدارس فقهية أخرى كمدرسة الفلاح ، قلاعا للعلم و مقصدا للطلبة من كل فج ، كما كانت هناك كتاتيب يشرف عليها شيوخ ومعلمي قرآن ، و كان الطلبة يجدون المساعدة من محبي الخير من أغنياء المنطقة هذه المدارس تمد مناطق الوطن بالطلبة للتدريس في المساجد خاصة الجزء الغربي و عن ذلك يقول الشيخ عبد الرحمان شيبان و هو وزير سابق للشؤون الدينية: "إن الشلف هي مطمورة حفظة القرآن" [1].فكيف كان واقع التعليم القرآني ومامدى تاثيره على منطقة الشلف خلال النصف الاول من القرن العشرين.

واقع التعليم القرآني بمنطقة الشلف

مع مطلع القرن العشرين و توقف المقاومة المسلحة لم يبق لأهل هذه الديار ملاذا يتحصنون به من الغزو الاستيطاني و الثقافي ، إلا التمسك بالعقيدة الطاهرة و من هنا كان لابد من رفع العناية بإنشاء المزيد من الوسائل التي تكفل لهم ذلك، فانطلق السكان يؤسسون في كل ناد و واد[2] مدرسة قرآنية تكون بمثابة الدرع الذي تتحطم عليه المخططات الاستعمارية الرامية إلى النيل من مقومات الأمة و من موروثها الحضاري حتى أصبحت منطقة الشلف عامرة بالمدارس القرآنية و الزوايا وقد تخرج منها وفود من العلماء و الطلبة شكلوا المرجعيات الدينية لعامة الناس خلال هذه الفترة[3].

1ـ آليات التعليم القرآني

أ ـ تمويل المدارس القرآنية

من المعروف أن التعليم القرآني كان قبل الاحتلال يعتمد في بقاءه و ازدهاره على الأوقاف الإسلامية و التي كانت من الكثرة و الثروة ما يكفي للإنفاق عليه بسخاء و بعد دخول الاستعمار قام بمصادرة هذه الأوقاف ، وهذا ما يعني أن أهل الشلف اجتهدوا في الإنفاق على هذه المدارس لكي تستمر في أداء رسالتها التعليمية.

لقد كانت هذه المدارس تعتمد في كل صغيرة و كبيرة على التبرعات التي يقدمها أهل البر و الإحسان من السكان المحيطين بها و القائمين عليها ، وكان الطلبة الداخليين يعتمدون على السكان القادرين على الوفاء بالتزاماتهم وكانت الإعانة تتمثل في تقديم الأكل كل يوم و يطلق على هذه الإعانة (الرتبة) وعن ذلك يقول شيخ مدرسة الفلاح عن القائمين بها:" هي مدرسة تأسست في 14 أكتوبر 1935 بالأصنام اشتراها فكنوس العباسي و شارك في ثمنها المفضال أحمد بن السايح (...) والناس القائمون لهذه المدرسة كثيرون منهم السيد أحمد ابن السايح فإنه تكفل بما يلزم المدرسة من أجرة الضوء والماء و الحصير(...) ومنهم ابن الزروقي المجاجي فإنه كان قائما بأكل الطلبة ليلا (...) لاسيما أهل بقعة سحنون فإنه يعتمد عليهم في إطعام الطلبة نهارا"[4].

ب_ طرق التعليم (بيداغوجية التعليم القرآني)

لقد كانت تقاليد التعليم الديني بالمنطقة موضوع الدراسة لا تسمح بدراسة علوم الدين و العلوم اللغوية و التبحر فيها إلا لمن أجاد حفظ القرآن الكريم على يد حافظ[5] وفي ظل الاهتمام الكبير للسكان بالتعليم القرآني و الذي ساعد على توفير الإستقرار للوافدين و كان الإقبال على حفظ القرآن و التفقه في الدين كبيرا ليس من أبناء المنطقة فحسب بل من

المناطق المجاورة أيضا.

فإذا جئنا إلى طريقة التعليم وفيما يخص الجانب البيداغوجي، يستوجب حفظ القرآن على كل طالب استعمال الأدوات الشائعة ، اللوحة الفردية و القلم القصبي والسمق، حيث يكتب الطالب على اللوحة ما يراد حفظه ثم تمحى كل مرة، و أول ما يكتب في اللوحة الحروف الأبجدية كلها ثم تحفظ مستقلة بعضها عن بعض وتحفظ بعد ذلك الحركات ، وفي غياب السبورة يقتضي على الشيخ أن يكتب لكل طالب مخططا على صلصال اللوحة دون مداد و يؤمر التلميذ بإمساك القلم محبرا وأن يتبع المكتوب المخطط ليتدرب على التحكم في القلم و تقليد الحروف المكتوبة ثم يتولى الشيخ تحفيظه ما كتبه عن طريق المحاكاة ، و تتكرر هذه العملية حتى يستوعب التلميذ كيفية كتابة الحروف و استعمالها في بناء الكلمات[6].

و يتبع الطالب المبتدئ طريقة التدرج في حفظ القرآن يحدد هذه الطريقة تقليدا عاما يقتضي الانطلاق من السور القصيرة و تأتي بعد ذلك طريقة إعادة الحفظ، لأن ما يحفظه الطالب يعتريه النسيان ما لم يتعهده بالمراجعة الدائمة لإجادة حفظه و إتقان الرسم المصحفي و إن كانت أحكام التلاوة لم تلقى العناية في كل المدارس تقريبا حيث انصب الاهتمام على الحفظ و إجادته و سلامة النطق مع مراعاة الوقف ، وكانت القراءة السائدة هي قراءة ورش[7] هذا عن طريقة التعليم في المرحلة الأولى .

أما بالنسبة لطريقة التعليم في المرحلة الثانية فكانت تعتمد على التلقين حيث تعقد الحلقة في قاعة الصلاة لمسجد الزاوية أين يجلس الشيخ على كرسي خشبي مرتفع حتى ينظر إليه جميع الطلبة كدلالة رمزية على التحكم في نظام الحلقة و مراقبة سلوكيات جميع الطلبة و لفت انتباههم ، و يتحلق الطلبة متربعين حوله و تبدأ العملية التعليمية بقراءة نص في المتون فقها أو نحوا و هذا النص هو ما يشكل موضوع الحلقة ، و بعد أن يتم الطالب قراءة النص يشرع الشيخ في شرحه معتمدا في تلقينه ذلك على محفوظه من الشروح و الحواشي الموضوعة حول النص دون أن يبدي رأيه حول الموضوع[8].

هذه هي الطريقة الإلقائية التقليدية والتي يلجأ إليها الشيوخ لإثارة دافعية الطلبة و تشويقهم إلى الدرس بالإضافة إلى كونها تكسبهم معارف كثيرة في وقت قصير، و عند انتهاء الشيخ من الدرس يبدأ الطلبة في طرح الأسئلة و تبدأ بذاك الطريقة القائمة على النقاش، ولإنجاحها انتهج الشيوخ أسلوب الجد و الهزل للترويح عن النفس و ترسيخ الفهم[9] ، كما اعتمدت طريقة المراجعة الجماعية بأن يقوم الطلبة المتقدمون في الدراسة بإعادة شرح النص للطلبة الجدد و هو ما يعطي الطلبة فرصا للتقدم في عملية التعلم.

نجد تفاوتا في المعدل العمري للطلبة، ويعود ذلك إلى أن التحاق الطالب إلى المدرسة القرآنية لا يحدد بسن معين ولا بفصل معين من فصول السنة[10]، فلكل طالب الحق في الالتحاق بالمدرسة القرآنية أو الزاوية لعدم وجود لوائح تحدد النظام الداخلي لتسيير هذه المؤسسات.

لقد كانت كل أسرة يتقدم أولادها في تعليمهم تعتبر محظوظة وتعبر عن سعادتها بالاحتفال بالطفل ومن نافلة القول أن نذكر كيفية إجراء حفل الاختتام بالنسبة لحفظ القرآن الكريم، فأن الطالب إذا ختم حفظ القران أو كتاب الفقه فلا تسال عن الفرحة التي تظهر لدى الأهل أولا ثم في الكتاب حيث تقام المآدب ويستدعى الشيخ والطلبة والأعيان وقد يدوم الحفل بضعة أيام لدى العائلات الميسورة[11] ، بالإضافة إلى الاحتفال بالطالب كان الهدف أيضا تحفيز باقي الطلبة ليحققوا ما وصل إليه زميلهم و بهذا النجاح يدخل الطالب مرحلة جديدة من حياته إما أن ينخرط في سلك الطلبة أو يصبح مؤدبا[12].

لم يكن الشيوخ يتقاضون أجرا من الطلبة بل كان السكان المحيطين بالمدرسة أو الزاوية هم من يتولون ذلك عن طريق الهبات المادية ،كما كان أهل الحي أو القرية هم الذين يقومون باختيار الشيخ على أساس التقوى و الصلاح كما يشترط فيه الزواج و الأخلاق الفاضلة و أن يكون حافظا للقرآن الكريم و مؤديا للشعائر الدينية.

وكان أهل القرى أكثر حاجة إلى الشيخ من سكان المدينة فهم يستفتونه في شؤون الدين و العقود.

ويلجأون إليه في كل المشاكل الاجتماعية[13] و الشيخ بالنسبة للطالب محل الرهبة و الرغبة و السعي لاكتساب رضاه من أهم ما يطلبه التلميذ، ورضا الشيخ يكتسب بأمور أهمها الطاعة والانقياد و التطوع لخدمته و السهر على شؤونه وتقديم الزيارة له عندما تسمح بذلك الظروف وتستمر العلاقة هذه حتى بعد تخرج الطالب وإجازته[14].

2ـ المدارس القرآنية و الزوايا

أما بالنسبة للمدارس التي كانت منتشرة آنذاك بمنطقة الشلف فهي تختلف فيما بينها من حيث الشكل و المضمون و يمكن تقسيمها على النحو التالي:

أ**الكتاتيب**: الكتاب عبارة عن حجرة أو حجرتين قد تكون ملكا لأحد المحسنين و تنتشر الكتاتيب في المدن كما في الأرياف،يكون أثاثها حصير يجلس عليه الطلبة وألواح خشبية وأقلام من القصب كمية من الصلصال والسمغ المصنوع من صوف الغنم[15] ولم نتمكن من إحصاء عدد هذا النوع ذلك لأنه في الحي الواحدوالقرية اثنين أو أكثر، وتصنف الكتاتيب الى كتاتيب خاصة بابناء الحي والقرية مهمتها تعليم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ ما تيسر من القران الكريم يديرها شيخ يكون في الغالب حافظا للقران وغير متفقه لا يتعدى عدد طلبلتها اثني عشر(12) طالبا لا توفر الغذاء ولا المأوى. ومنها مدارس خاصة بالطلبة المسافرين وهي اقل عددا من الأولى يقصدها الطلبة الوافدون ويكون عددهم بين الخمسة

و العشرين إلى الثلاثين طالبا(16) يديرها شيوخ حفاظا للقران الكريم لهم رصيد فقهي تقدم تعليما يتمثل في حفظ القران وعلوم الدين بالإضافة إلى علوم اللغة ومن هذه المدارس :

- مدرسة ابن الوليد بأعالي مجاجة للشيخ البواعلي محمد بن بهلول 1954-1956 .

- مدرسة الشيخ احمد بوخدية (بن زخروفة) بالصبحة طلبة مسافرون 1919-1945.

- مدرسة الحاج بن عبد القادر بن حورة سيدي خليفة الشارف بوقادير طلبة مسافرون 1930-1945.

هذه بعض مدارس الفروع أما إذا جئنا إلى الأصول فقد تمثلت في الزوايا التي كانت تمارس مختلف أصناف التعليم ، تحفيظ القران دراسة الفقه والحديث وعلم التوحيد والنحو والصرف والعروض، وكانت طريقة التعليم بها تعتمد كما أسلفنا على التلقين والحفظ سواء تعلق الأمر بحفظ القران أو المتون فقها أو نحوا حيث تحفظ دواوين مختصر خليل ، كما تحفظ الألفية واللامية والأجرمية وسأقتصر على ذكر نموذجين من هذه الزوايا.

ب-زاوية مجاجة العتيقة (سيدي محمد بن علي)

أسسها محمد بن علي بهلول المجاجي تنتمي إلى الطريقة القادرية كانت تستقطب جموعا غفيرة من الطلبة الوافدين عليها من مختلف المناطق لتلقي أصناف شتى من العلوم الدينية واللغوية[17].

وفيما يتعلق بالدور التعليمي لهذه الزاوية خلال مرحلة الدراسة فإننا سنقتصر الحديث عن الفترة الممتدة بين1900-1936، حيث تعتبر هده المرحلة استمرارا لنشاط وازدهار الزاوية الذي انطلق منذ تأسيسها غير أن دورها بدأ يتضاءل خلال هذه الفترة بسبب مراقبة الاستعمار لها واستيلاءه على أهم مصادر تمويلها (الأوقاف) بسبب موقفها المعادي للاستعمار ورغم ذلك ظلت تواصل أداء رسالتها ، واصدق تعبير عن مكانة زاوية مجاجة في الحركة الثقافية للمنطقة ما قاله أبو القاسم سعد الله نقلا عن ابن سليمان في كتابه كعبة الطائفين : "إنها دار علم وتقوى ...وإنها كبيرة القدر كثيرة البذر ويقصدها المتعلمون وشهرتها تغني عن التعريف "[18].

وخلال مرحلة الدراسة تخرج منها عدد من أبناء المنطقة خدموا العلم إما بالإفتاء أو التدريس منهم الشيخ البوعليلي بن عبد الله شيخ المدرسة البوعليلية بأم الدروع، والشيخ البواعلي محمد بن بهلول شيخ مدرسة ابن الوليد ، لكن مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وبسبب موقف الاستعمار من الزاوية تفرق عنها الطلبة خاصة الوافدين واضطر آخر شيوخها سي قدور بالشاوي إلى الانتقال إلى مدرسة بحي الفيرم بمدينة الأصنام .

ج-زاوية بن شرقي بونجار بالعطاف

تأسست هذه الزاوية في حدود 1863م[19] على يد الشيخ بن شرقي بونجار، تقع شمال غرب العطاف وقد توافد عليها الطلبة وغصت بالجموع الغفيرة حتى من العامة ، وقد تخرج منها طلبة كثيرون أصبحوا فيما بعد فقهاء وساهموا في نشر التعليم القرآني بالمنطقة مثل الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم شيخ مدرسة العطاف بين 1914-1934 ومدرسة الفلاح بين 1935-1945 وصاحب كتاب المرآة الجلية،كما ساهمت في التصدي للحملات التنصيرية التي كانت تقودها جمعية الآباء البيض، للإشارة كانت الزاوية محاطة بخمس كنائس وقريتين لرعاية الأيتام هما قرية سان سيبريان وسانت مونيك ورغم ذلك فقد نجحت زاوية بن شرقي بونجار في مواصلة رسالتها التعليمية بعد وفاة مؤسسها سنة 1922 كما أنها اهتمت بتعليم البنات فخصصت فرعا لذلك ، ومن الطبيعي أن تتعرض كغيرها من زوايا العلم والقران لمراقبة الاستعمار خاصة عند اندلاع الثورة فتفرق عنها الطلبة نتيجة المداهمات وعمليات التفتيش وتدهور الأوضاع الأمنية حتى أغلقت سنة 1956.

هذه نافذة على واقع التعليم القرآني بمنطقة الشلف فما هي آثاره عليها؟

3- أثار التعليم القرآني على منطقة الشلف

رغم ما يمكن أن يؤخذ على التعليم القرآني ومؤسساته فانه لا ينبغي أن يحجب عنا ما خلفه هذا التعليم من خلال وسائله من نتائج كان لها الأثر البالغ في خدمة المجتمع الشلفي وذلك بالمحافظة على مقوماته ووحدته الاجتماعية والنفخ في روح المقاومة .

فلقد كانت المدارس القرآنية والزوايا المنابع التي ارتوت منها الأجيال بمنطقة الشلف بعد أن سد الغزاة أبواب المعرفة في وجهها ، فكانت مصدر زادهم من المعارف الدينية واللغوية كما عمل هذا التعليم على التماسك الاجتماعي للمنطقة باعتباره كان يعمل على توسيع دائرة المصالح المشتركة بين أفراد الجماعة،خاصة إذا علمنا أنه لا يمكن لأي حركة اجتماعية أن تنجح إلا إذا صاحبها وعي اجتماعي وهذا لا يأتي بالطبع إلا عن طريق التعليم.

إن النتائج التي حققتها المنطقة من موضوع الدراسة من خلال مدارس التعليم القرآني تجاوزت حدود الأهداف القريبة والمباشرة إلى أهداف أخرى لم تكن مقصودة، حيث انه وبالإضافة إلى ما تقدم فقد ساهمت المدارس القرآنية في التعبئة السياسية لأبناء المنطقة خاصة في أوساط الطلبة والشيوخ اللذين لم يتأخروا في الالتحاق بصفوف الثورة عند اندلاعها.

عموما فأنه بقدر ما كانت السياسة التعليمية الفرنسية سلاحا ماضيا لمحاربة الشخصية الوطنية بقدر ما قام التعليم القرآني

بدور لا يستهان به في مواجهة هذه السياسة ، وقد ظهرت آثار التعليم القرآني الثقافية والاجتماعية و السياسية على النحو التالي :

أ.الآثار الثقافية

ـ المحافظة على اللغة العربية

من المعروف أن الاستعمار شن هجوما عنيفا على اللغة العربية باعتبارها من أهم مقومات هذا الشعب من خلال سياسته القائمة على الفرنسة وتهميش العربية واعتبارها لغة أجنبية حسب قانون1938 في ظل هذه الظروف قام التعليم القرآني بالمحافظة على اللغة العربية باعتبار أنها كانت اللغة التي تدرس بها مختلف علوم الدين وعلوم اللغة التي كانت تدرس في تلك المدارس والزوايا هذه الأخيرة التي تحدت تلك الإجراءات الفرنسية واستمرت في تعليم السكان لغتهم وعن ذلك يقول الشيخ البشير الإبراهيمي : " فليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا وديننا ولو في سم الخياط أو على حد مثل الصراط[20] " لقد لقيت المدارس القرآنية بالمنطقة تأييدا وتكاثفا من السكان الذين التفوا حولها يمدونها بما تحتاجه من عون حتى تقوى ويزيد عددها لأنها الوسيلة الأضمن لمواجهة المخططات الاستعمارية ضد اللغة العربية ، لقد بدأ الناس يشاهدون خطباء يعبرون عن أفكارهم بلغة عربية سليمة ونستدل على ذلك بالخطبة التي ألقاها شيخ زاوية مجاجة قدور بالشاوي أمام أعيان مدينة الأصنام وأمام أنظار الشيخ البشير الإبراهيمي وذلك سنة1944 بمناسبة افتتاح المدرسة الخلدونية وقد أعجب هذا الأخير بالشيخ الخطيب كما حملت صفحات البصائر والمنار مقالات كتبها أبناء المنطقة آنذاك اللذين تخرجوا من تلك المدارس أمثال الشيخ الجيلالي الفارسي وفي هذا دليل على دور هذا التعليم في إحياء وبعث اللغة العربية .

المحافظة على الدين الإسلامي

لقد حقق التعليم القرآني في المحافظة على الدين الإسلامي بالمنطقة نجاحا لا يقل أهمية عما حققه في المحافظة على اللغة العربية فقد تعرض الدين بدوره إلى المضايقة من طرف الاستعمار، حيث تضافرت جهود الكنيسة مع جهود الإدارة في معركة واحدة ضد الدين،ولذا قامت المدارس القرآنية والزوايا بالمنطقة موضوع الدراسة بمقاومة تلك الإجراءات بإنشاء العديد من المدارس القرآنية والمساجد لنشر التعليم الديني وتحفيظ القران الكريم .

استطاعت الزوايا و المدارس القرآنية أن تشكل المرجعية الدينية لعامة الناس وان تكون الملاذ الآمن لكثير من الأهالي خاصة بعد تزايد الحملات التبشيرية،ولعبت في هذا الصدد زاوية الشيخ بن الشرقي بالعطاف دورا هاما في مواجهة هذه الحملات خاصة وأنها كانت محاطة بخمس كنائس وقريتين لرعاية الأيتام فراح شيوخ الزاوية يشجعون الطلبة حتى الذين لم يأخذوا القدر الكافي من التعليم ومنحهم الإجازات لفتح مدارس قرآنية قرب الزاوية تعلم الناس دينهم ولغتهم[21].

إن ما حققته فرنسا في مجال التنصير بالمنطقة لا يكاد يذكر مقارنة بالمجهودات التي بذلتها و الأهداف التي سطرتها وأستدل هنا بما عبر عنه الدكتور غوستاف لوبان عالم الاجتماع الفرنسي مؤكدا فشل هذه السياسة قائلا:"فأما يخص العرب فقد استشهدت بأربعة آلاف (4000) يتيم الذي تول أمرهم الكاردينال لافيجري فعلى رغم تربية هؤلاء تربية مسيحية بعيدة عن كل تأثير عربي رجع أكثرهم إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد"(22) واعترف الفرنسيون أنفسهم على الدور التي لعبته زوايا العلم والقران في حماية الدين جاء في أحد التقارير:"تسعى الزوايا التي يديرها مقدمون (...)إلى إفساد عقول الأجيال وذلك ببث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب وحملهم على كراهية الكافر، إن مشايخ الزوايا يختارون في تدريبهم للفقراء نصوصا من القران معادية لنا تحطم فيهم بسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم من طرف مؤسساتنا[23] ".وهذا ما يفسر لنا سبب منع تدريس دواوين مختصر خليل حول الجهاد من طرف الإدارة الاستعمارية. لقد وقف الاستعمار عاجزا أمام هذه القلاع فاشلا في تحقيق أهدافه لان الله تعالى تكفل بحفظ كتابه حيث قال في محكم تنزيله:

﴿إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[24] وضمن استمرار الدين الإسلامي رغم انف الكافرين قال تعالى: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[25].

بـ.على الحياة الفكرية

لاشك أن حرمان الجزائري من حقه في التعليم جعله يلتف حول الزوايا والمدارس القرآنية، ورغم أن برامجها لم تكن مسايرة لروح العصر إلا أن التعليم القرآني تحدى سياسة فرنسا التجهيلية التي شرعت في تطبيقها منذ الاحتلال الى1962[26].

فلقد انطلقت من منطقة الشلف بعثات نحو المعاهد العليا كمعهد ابن باديس بقسنطينة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس ففي سنة1946 سافرت من الأصنام بعثة من96طالبا إلى الزيتونة ممن كانوا قد تحصلوا على القدر الكافي من التعليم في مدارس وزوايا المنطقة ، ولقد عاد هؤلاء ليفتحوا في قراهم وأحياءهم مدارس قرآنية مثل الشيخ غلام الله بوعلام من بوقادير الذي فتح مدرسته سنة1946 درس بها علوم الدين واللغة والشيخ بلعالية دومة محمد الذي فتح مدرسة بأولاد بن يوسف بأم الدروع في سنة1950.

جـ.الآثار الاجتماعية

استطاع شيوخ المدارس القرآنية والزوايا أن يحلو محل القضاة ، فالشيخ محل الرهبة والرغبة والسعي لكسب وده ومخالطته غاية ينشدها الجميع وهو القاضي الأول في الحي والقرية فقد

كان هؤلاء الشيوخ يقومون ب:

- إصلاح ذات البين والفصل في الخصومات التي تقع بين الأقارب أو العامة التي ترفعها الجماعة إلى الشيخ دون اللجوء إلى المحاكم الاستعمارية[27].

- الزواج: لا يتم عقد زواج إلا بحضور شيخ الزاوية أو المدرسة القرآنية فقد كان يعقد القران ويوثق عقد الزواج وفق الكتاب والسنة.

- تقسيم الميراث كانت هذه القضية جد حساسة لا بد لها من شيخ ملم بتقسيم التركة بين أفراد العائلة وقد عثر على عدة وثائق بحوزة الشيخ رحماني قوادري مصطفى بن إبراهيم[28] الذي كانت له خبرة في تقسيم الميراث.

كما كان هؤلاء الشيوخ يجلسون للناس في الأسواق الأسبوعية يفكون نزاعاتهم ويفتونهم في الأمور التي تتعلق بالطهارة والصلاة والصوم وكما كان لكل قبيلة أو عرش سوقا خاصا فان لكل قبيلة عرش فقيها أو شيخا يجلس لفك النزاعات في الأسواق ، بالإضافة إلى ذلك كان بعض الشيوخ يقومون بوظيفة التوثيق فيسجلون عقود البيع والكراء والرهن[29] حتى أن المحاكم الرسمية كانت تأخذ هذه العقود بعين الاعتبار بل اضطرت أن ترخص للشيوخ المعروفين بأن يوثقوا بشرط تسجيل وثائقهم على أوراق مدموغة حتى تضمن توفير رسوم العقد للدولة.

د-الآثار السياسية

لقد قام التعليم القرآني بتكوين جيل ساهم إلى حد كبير في التعبئة السياسية، فبالرغم من أن الغالبية من الشيوخ والطلبة لم تكن تملك استراتيجيه واضحة المعالم في ميدان العمل السياسي خاصة قبل الحرب العالمية الثانية[30] ولعل من أسباب ذلك عدم وضوح الرؤية السياسية لديهم وغياب المنظور السياسي والاهتمام بطلب العلم أكثر من الخوض في أمور السياسة ، لكن ذلك لم يمنع من حصول تطور بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة عوامل منها:

- استدعاء الطلبة للخدمة العسكرية وعودة البعثات التعليمية من تونس والتي كان طلبتها يحملون أفكارا جديدة.

- استقبال المنطقة لوفود من العلماء المصلحين والزعماء السياسيين و انعقاد مؤتمر زدين1947 .

وبقدر ما عاد طلبة البعثات برصيد علمي ثري ومتميز فان أقرانهم من الذين انخرطوا في العسكرية عادوا برصيد هام من التجارب السياسية والعسكرية وبذلك زاد وعي هذه الشريحة من الطلبة بالأخص عندما رأوو فرنسا تستميت في الدفاع عن حريتها وفي نفس الوقت تحتل شعبا أخر لذلك فما أن اندلعت الثورة التحريرية حتى وجد هؤلاء الطلبة أنفسهم أكثر جاهزية لخوض غمار الكفاح المسلح بعد أن لبى هؤلاء نداء الجهاد بشكل فوري باعتبار أنهم أولى من غيرهم.

خاتمة

رغم ما تميز به التعليم ألقراني ورغم ما يؤخذ على مدارسه وشيوخه على أنهم ورثوا ثقافة عصر الانحطاط وأنهم أوقفوا جهودهم على حفظ المصنفات وشرحها دون أن يحاولوا التفكير في العلوم التي تتقدم من حولهم ، وأنهم بذلك حصروا الأمة في مفاهيم تقليدية ، إلا أن ذلك كان نتيجة سياسة العزل التي فرضها الاستعمار على الشعب الجزائري والذي لم يبق له إلا الانطواء على الذات والتمسك بما بقي له من الجانب الروحي ، ومع ذلك فقد اطلعت المدارس القرآنية والزوايا بمنطقة الشلف بادوار مختلفة مسجلة بذلك مدى رفض أبناء هذه الرقعة من الوطن الانسلاخ عن هويتهم العربية الإسلامية، حيث ساهمت هذه المدارس بتعليم الأبناء وانتشالهم من ظلام الجهل وغرست فيهم مبادئ الوحدة وبذور العقيدة وحافظت على مقومات الأمة وساهمت في التعبئة السياسية لتتحول عناصر التعليم إلى عناصر للجهاد.

الهوامش

1) خالدي بن العربي ، دور طلبة الزوايا والمدارس القرآنية خلال الثورة 1954-1962 بمنطقة الشلف مذكرة ماجستير جامعة الجزائر معهد التاريخ،2007-2006 ،ص20.

2) المرجع نفسه ص12.

3) خيثر إبراهيم ، محاضرة بعنوان إطلالة على المدارس القرآنية في عهدها التقليدي ، ألقيت أمام السلك الديني بالبليدة 03-2005-256 ص1.

4) الجيلالي بن عبد الحكم ، المرآة الجلية في ما تفرق عن أولاد يحيى بن صفية في التعريف بمشاهير العلماء ورجال المعاهد الصوفية .ط1 ،مطبعة ابن خلدون 1953ص126.

5) بن إسماعيلي محمد ، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط2.مطبعة الكاهنة الدويرة 1999،ص16.

6) عشيط هني محمد ، مقابلة شفوية بتاريخ 25-03-2008.

7) خيثر إبراهيم ،/ مرجع سابق ص3.

8) بوكفة يوسف ، مدرسة مازونة الفقهية النهضة والسقوط ، رسالة ماجستير جامعة وهران قسم علم الاجتماع2002 ص33.

9) بلحاميسي مولاي ، دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية ، مجلة العصر العدد11،أكتوبر1997 ص9.

10) خيثر إبراهيم مرجع سابق ،ص6.

11) بن إسماعيلي محمد ، مرجع سابق ص37.

12) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985 ص336.

13) المرجع نفسه ص125.

14) غلام الله أبو عبد الله،نظرة على التعليم الأهلي بسهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين،مجلة اللغة العربية عدد ممتاز ، شتاء2005 ص31 .

15) بن إسماعيلي محمد ، مرجع سابق ص34.

16) خالدي بلعربي ، مرجع سابق ص20.

17) أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ص510.

18) خالد بوشمة ، مقال حول زاوية مجاجة العتيقة ، رسالة المسجد العدد2 ،اوت2007 ص70.

19) تاريخ التأسيس مذكور على لوحة بمدخل الزاوية وكذا اسم المؤسس وتاريخ ميلاده.

20) الإبراهيمي محمد البشير، الآثار، المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر1987 ص248.

21) خالدي بلعربي ، مرجع سابق ص21.

22) تركي رابح ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد حركة الإصلاح ، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ،ط2.ص628.

23) حمادو نذير ، وثائق فرنسية عن مقاومة زوايا القران للمشروع الثقافي الاستعماري للجزائر ، مجلة المعيار ، جامعة قسنطسنة ، سبتمبر 2005ص526.

24) سورة الحجر ، الآية(19).

25) سورة التوبة ،الآية (32).

26) تركي رابح ، التعليم القومي والشخصية الوطنية ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1975 ص350-351.

27) خالدي بلعربي ، مرجع سابق ص22.

28) الشيخ الشهيد رحماني قوادري مصطفى ، من مواليد 1907 متخرج من زاوية مجاجة شيخ المدرسة القرآنية بيرمول .

29) غلام اللعب بوعبد الله ، مرجع سابق ص41.

30) خالدي بلعربي ،ةمرجع سابق ص27.